

اللغة العربية وتحديات العولمة

Arabic Language and the Challenges of Globalization

جعير محمد أستاذ مساعد (i)

قسم العلوم الإنسانية، شعبة الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
Djarir1962@gmail.com

ملخص

تواجه اللغة العربية اليوم تحديات جمة داخلية وخارجية مثلما ظلت عبر عصور التاريخ المختلفة، وإن كانت تحديات اليوم المتمثلة في العولمة، وذلك لأهداف ومآرب ليست بريئة على الإطلاق وإذا كان الكثير من المهتمين باللغة العربية والباحثين فيها التمسوا أسباب هذه التحديات، ووضعوا جملة من الوسائل من الرهانات، إلا أن هذه التحديات تتزايد في زمن العولمة وانتشار وسائل الاتصال واتساعها على نطاق كبير. إن العولمة من جهة قد فتحت بابا ووفرت جميع الوسائل لكل لغة لتجد سبيلها إلى خوض التواصل الدولي، ولكنها من ناحية أخرى قد أدت إلى ما يمكن الإطلاق عليه مصطلح "أزمة الهوية اللغوية" حيث أن أبناء هذا العصر لم يعودوا يعيشون اللغة التي تنتمي إليها ثقافتهم وحضارتهم وإنما يعيشون اللغة المهيمنة على التواصل الدولي.

لذلك يتطلب حتمية استعمال اللغة العربية كأداة لتبليغ التقانة لتأمين مستقبل لغتنا، ولتأهيلها لتتبوأ المكانة اللائقة بها بين اللغات الحية. وينبغي أن لا نغفل حقيقة أخرى ستساعد ولاشك اللغة العربية على احتلال هذه المكانة في المستقبل، وهذه الحقيقة تتجلى في كون اللغة العربية في حاجة إلى مسيرة العصر، حتى تعبر عن فكر عصري، وتساهم في خلق هذا الفكر العصري.

الكلمات الدالة: العولمة، التحديات، الهوية اللغوية و اللغة العربية.

Abstract

Facing the Arabic language today many challenges both internal and external, as has been throughout history, though today's challenges of globalization, and that the objectives and purposes is not innocent at all, and if a lot of people interested in the Arabic language and researchers have sought the causes of these challenges, and put a number of ways of bets However, these challenges are increasing in the era of globalization and the spread of the means of communication and breadth on a large scale.

The globalization of the hand has opened the door and provided all the means for each language to find its way to fight international communication Portal, but on the other hand has led to what may be absolutely the term "identity crisis of language" as the children of this age are no longer living language to which it belongs cultures and civilizations, but living on the dominant language of international communication.

It requires the use of the inevitability of the Arabic language as a tool for communicating technology to secure the future of our language, and rehabilitation to assume the rightful place among the living languages. Should not lose sight of the fact that the other will no doubt occupy the Arabic language on this position in the future, and this fact is reflected in the fact that the Arabic language in the need to keep pace with the times even reflects modern thought, and contribute to the creation of this modern thought.

Key words :

فالعولمة هي هذا التشابك الذي نعيشه اليوم، ومعظمه ليس خياراً، فالسوق المشتركة والعلوم والتقانة، وانتشار الأفكار والمعلومات عبر وسائل الاتصال، كل ذلك عمليات متاحة للجميع يتقدم فيها القوي ويفرض تفوقه.

إن العناصر الأساسية في فكرة العولمة هي، ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم، سواء المتمثلة في تبادل السلع والخدمات، أو في انتقال رؤوس الأموال، أو في انتشار المعلومات والأفكار، أو في تأثر أمة بقيم وعادات غيرها من الأمم. كل هذه العناصر يعرفها العالم منذ عدة قرون، وعلى الأخص منذ الكشف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر، أي منذ خمسة قرون. ومنذ ذلك الحين والعلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدول والأمم تزداد قوة، باستثناء فترات قصيرة للغاية، مالت خلالها الدول إلى الانكفاء على ذاتها، وتراجعت معدلات التجارة الدولية ومعدل انتقال رؤوس الأموال، وباستثناء مجتمعات محدودة العدد، تركها العالم في عزلة، أو فضلت هي أن تعزل نفسها.

فالظاهرة عمرها، خمسة قرون على الأقل، وبدايتها وغدها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتقدم تقانة الاتصال والتجارة منذ اختراع البوصلة وحتى الأقمار الصناعية⁽¹⁾.

لم يكن التحدي للغة العربية عن طريق الاحتكاك الحضاري، ولا الاستعمار والامبريالية فقط، فقد جاءت العولمة لتضع تحدياً آخر. وأثرت على الكثير من مجالات الحياة، وبودنا أن نحص هذه التأثيرات على اللغة العربية والناطقين بها. وحتى نعي مدى تأثيرها على اللغة العربية، نتطرق أولاً إلى العولمة عموماً.

للعولمة الكثير من الوجوه: منها الاقتصادية، الثقافية-اللغوية، والسياسية. فهناك العولمة الاقتصادية والتي تتيح تنقل حر للسلع، للخدمات، للاستثمارات، والمعلومات بين الدول. وللعولمة إسقاطات على الثقافة، تشمل توسيع الثقافة الغربية والمرتبطة بقيم معينة الداعمة للاستهلاك ومراكمة الرأسمال. وللعولمة إسقاطات سياسية أيضاً، حيث يدعي أوهمي (Ohmae) أن الاقتصاد المتشابك هو مسح الحدود بين الشعوب، والأكثر من ذلك الحدود التقليدية للدول. ويدعي كاستيلز (Castells) أن العولمة تهدد تقويض المزايا الأساسية للدول القومية.

أظهرت الأبحاث حول العولمة الآراء المتباينة حولها، فمنهم من يرى إسقاطاتها الإيجابية وآخرون يرون آثارها التدميرية. فعلى سبيل المثال، يرى البعض إن العولمة سيرة إيجابية وهي احتفاء بنصر الرأسمالية العالمية. بالمقابل، يرى آخرون آثار العولمة المدمر على الثقافات المحلية. بإيجاز، هناك من يرى العولمة ثقافة، وخصوصاً الثقافتين الأمريكية والأوروبية، وهناك من يرى العولمة سيرة تاريخية طبيعية.

2- الأبعاد اللغوية لظاهرة العولمة

سواء كانت العولمة وفاقاً أم صراعاً، فللغة. في كلتا الحالتين شأن خطير فإن كانت "وفاقاً"، فاللغة ذات شأن جليل في حوار الثقافات؛ حيث من المتوقع أن يتخذ أنصار العولمة من علوم اللغة مرتكزاً أساسياً لعولمة الثقافة، فهؤلاء العولميون لا يقرون بالخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب، ويقضون

شهد العالم في الحقبة الأخيرة من القرن العشرين تشكيل نظام عالمي جديد اتضحت معالمه وآلياته تدريجياً حتى وصلت في تجلياتها العليا إلى ما يطلق عليه مصطلح العولمة، الذي جاء ليكون هو الأبرز والأكبر حدثاً في نهاية القرن العشرين، وقد أدى دخول هذا المصطلح إلى البلاد العربية، إلى الكثير من الاضطراب لعدم معرفة مفهومه ومدى التأثير الذي سوف يقوم به في جميع المجالات ومنها اللغة القومية.

وبما أن مصطلح العولمة لا زال جديداً ولا توجد أي دراسات علمية موثقة عن مدى تأثير العولمة على اللغة العربية، فإن الساحة الثقافية تعرف نقاشاً متواصلاً حول وضع اللغة العربية في عصر العولمة، وفاق مستقبلها.

يمكن ملاحظة وجود تيار في خضم هذا النقاش، يمثله عدد من الكتاب والباحثين العرب، تصدر عنه دعوات، تتحدث عن قرب موت اللغة العربية وانقراضها. وهناك في الجهة المقابلة آراء أخرى متفائلة، ترى العربية في خير وعافية، ولا داعي لهذا الحكم القاسي المبالغ فيه، مع اعترافها بوجود عدد من التحديات والعراقيل التي لا تؤثر في مجملها تأثيراً كبيراً على الوضع العام للغتنا، أو أنها يمكن التغلب عليها وحسمها مع الأيام. والحقيقة أن مرجع الخلاف بين وجهتي النظر هاتين قد يكمن في نوعية المعايير التي يستعملها كل منهما، وفي مرجعية النظر التي ينطلق منها هذا الطرف أو ذاك. وفي أحيان كثيرة قد لا تكون عند بعض من يخوضون في الموضوع آيةً معايير أو مقاييس موضوعية، وإنما هنالك مجرد انطباعات عامة تتكون لديهم نتيجة ملاحظات سريعة وعابرة، أو نتيجة ميل وعاطفة، فتكون الأحكام ذاتية محضاً.

تكمن المشكلة في معرفة الأثر السلبي الذي سوف يلحق باللغة العربية من جراء الاندفاع الغير مدروس نحو العولمة خاصة إن لم توجد قوانين رادعة لحفظ اللغة، وما هي الآفاق المستقبلية للغة العربية في ظل التحديات التي تواجهها؟

1- تحديات العولمة

لا تأتي تحديات اللغة العربية من الداخل فقط، وإنما أيضاً من مصادر خارجية، بدءاً من الاحتكاك مع اللغات الأخرى، وخاصة لغة المستعمر التي فرضت سلطانها على الدول العربية في القرون والعقود السابقة، والاحتكاك اللغوي في سياقات تفوق الغرب على الشرق، وتأثيرات العولمة التي دخلت إلى كل بيت عربي من أوسع الأبواب.

كما تتفاوت تحديات العولمة، من مستوى إلى آخر؛ فهي تحديات تواجه اقتصاديات الدول واختياراتها وسياساتها، كما تواجه ثقافات الأمم والشعوب وخصوصياتها ولغاتها وقيمها. وبقدر ما تتقوى الذات وتتحصن، ولا نقول تنعزل، تتوافر الإمكانيات للتغلب على هذه التحديات، وتنطبق هذه القاعدة على الاقتصاد والتنمية بصورة عامة، كما تنطبق على الثقافة والفكر واللغة.

الخامس الذي أطلقتها اليابان في بداية الثمانينيات بمثابة رد فعل تكنولوجي؛ بهدف كسر هيمنة اللغة الإنجليزية. وتوقف مشروع الجيل الخامس لأسباب عديدة، على رأسها ما تعرضت له اليابان بشأنه من ضغوط أمريكية تكنولوجية واقتصادية وسياسية. ولم تتوقف جهود أهل اليابان في الذود عن اليابانية، فراحوا يركزون على تكنولوجيا الترجمة الآلية من جانب، ومن جانب آخر، نراهم يستغلون تفوقهم التكنولوجي في مجال المعلوماتية؛ من أجل انتزاع الزعامة اللغوية لتكتل الدول غير الناطقة بالإنجليزية.

تشير جميع الدلائل إلى أن التواصل عن بعد، عبر الوسيط الإلكتروني، سيقبل، مفهوم التواصل اللغوي التقليدي كله، سواء من حيث طبيعة العلاقة بين المرسل والمستقبل، أو من حيث تنوع أشكال التواصل، واتساع نطاقه، وتعدد مطالب فاعليته. ولنأخذ - كمثال - التواصل "كتابياً" عبر الإنترنت من خلال البريد الإلكتروني أو حلقات "النقاش". إن هذا التواصل عن بعد، يتم باستخدام ما يمكن أن يطلق عليه أسلوب "الكتابة المحضة" التي تختلف عن شفاهة التواصل وجهاً لوجه، وذلك لسبب بسيط، مؤداه: أن شفاهة الحوار المباشر تزخر بالانفعالات، وتؤازرها - عادة - ألوان متعددة ومتضاربة من أفعال الكلام speech acts، مثل: حركات اليد والعينين، وخلجات الشفاه، وتغيير ملامح الوجه وأوضاع البدن. ولا شك أن أسلوب "الكتابة المحضة" هذا، سيكشف النقاب عن مناطق بقيت مجهولة ليومنا هذا، في علاقة الشفاهة بالكتابة، وهي العلاقة التي ما زالت محصورة - في أغلبها - في جوانبها الإملائية، دون التعرض للجوانب الاتصالية الأخرى، سواء الذهنية أو النفسية أو المعلوماتية.

الجميع يتفق على أن التواصل الحالي عبر الإنترنت، والذي يسوده التطور الكتابي، هو مرحلة بدائية وانتقالية تمهد لتواصل أوسع نطاقاً، تواصل "ما بعد الكتابة" الذي يمتزج فيه المكتوب مع المسموع، بالإضافة إلى المرئي من الصور الثابتة والمتحركة، مكوناً رسالة اتصالية كثيفة المعلومات. نحن إزاء ثورة في أسلوب التواصل الذي اعتاده البشر منذ الأزل. وليس لدينا تصور واضح عن طبيعته وتوجهاته وآثاره النفسية والاجتماعية، واستخداماته الشخصية وغير الشخصية، ولكنه سي طرح العديد من الأسئلة المحورية حول العلاقات بين أنساق الرموز المختلفة: نصوصاً و أفاظاً وأشكالاً. نذكر من هذه العلاقات على سبيل المثال: العلاقة بين نبر الكلام وتنغيمه، وبين إيقاع الموسيقى ونغمتها، أو تلك الخاصة بمساهمة الصور في فهم النصوص، واستغلال تحليل النصوص لغوياً في فهم الصور ذاتها، حيث - عادة - ما تتضمن النصوص إيضاحات تساعد على فهم القارئ للصور الواردة بها.

مثلاً يتواصل الإنسان مع أخيه الإنسان عبر الوسيط الإلكتروني، يتحاور كذلك مباشرة مع الآلة، وهو الحوار الذي يؤكد البعض أنه سيفوق مستقبلاً التواصل بين البشر. لن يقتصر الحوار البشري - الآلي على إنسان يسأل، أو يسترجع المعلومات، وآلة تبحث عن المعلومات لتظهرها له على الشاشة؛ فهو حوار أعمق من ذلك بكثير، حوار تبدو فيه الآلة أقرب ما

بشدة ضد النسبية الثقافية، والنسبية اللغوية بالتالي. وهم - بلا شك - سيجدون ضالته في التنظير اللغوي الحديث؛ حيث تندرج جميع اللغات الإنسانية في إطار النظرية العامة للغة. لقد استوعبت هذه النظرية القواسم المشتركة بين اللغات، وكذلك مواضع اختلافها وتباينها. علاوة على ذلك، فقد تبنت هذه النظرية النموذج الذهني للغة الذي يفترض كونها غريزة إنسانية، يشترك فيها البشر كافة.

أما إن كانت العولمة "صراعاً" يمكن أن نستهدي هنا بما أورده محمود أمين العالم في صدد دفاعه عن الخصوصية اللغوية، يقول: "أخذت العولمة السائدة تفضي بالضرورة إلى سيادة لغة من لغات هذه الدول المهيمنة في العلاقات التجارية والاقتصادية، وما يستتبع ذلك من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة. إن معنى ذلك هو تهميش اللغات والثقافات القومية، واحتواؤها، واستتباعها، كمدخل لاستتباعها اقتصادياً وثقافياً. يؤكد المشهد اللغوي العالمي صحة ما خلص إليه محمود أمين العالم، لا سيما في مجال الإعلام والمعلومات. وجاءت الإنترنت لتفتح بوابات الفيضان أمام تدفق معلوماتي هادر تطغى عليه اللغة الإنجليزية؛ وهو الأمر الذي أثار الفزع لدى جميع الأمم غير الناطقة بالإنجليزية، وقد انتابها قلق شديد على مصير لغاتها القومية وهي توشك أن تنسحق أمام الإعصار المعلوماتي الإنجليزي الجارف تحت ضغوط اقتصادية وسياسية وثقافية هائلة. إنها الصيغة اللغوية لمصطلح "الإمبريالية الثقافية" الذي شاع استخدامه هذه الأيام، ويفضل الكاتب وصف هذه الظاهرة بـ "الداروينية اللغوية" بعد أن باتت معظم لغات العالم، متقدمة ونامية على حد سواء، مهددة بالانقراض".

3 - تأثير التكتل الإقليمي على الهوية اللغوية

صاحب انتشار ظاهرة العولمة تنامي نزعة التكتل الإقليمي، ولم يكن ذلك لمجرد المحافظة على الهوية والخصوصية الثقافية، بل تحركه دوافع اقتصادية وسياسية وأمنية. وفي هذا الصدد، تشهد أوروبا توجهين متناقضين، أحدهما يقوم على أساس التنوع اللغوي، والآخر يميل إلى الانغلاق في إطار التوحد اللغوي. فبينما تعتبر كتلة الوحدة الأوروبية التنوع اللغوي لدولها (17 لغة) مصدراً لقوتها الاستراتيجية في مواجهة القطب الأمريكي المتشبه بأحاديته اللغوية، تسعى ألمانيا إلى إقامة حلف لغوي ألماني يجمع بينها وبين النمسا وسويسرا. ولمجموعة الدول الإسكندنافية مشاريع مشابهة للتكتل اللغوي. وعلى مستوى ما فوق الإقليمي، يسود الساحة السياسية العالمية نشاط متزايد لإحياء التحالفات اللغوية مثل "الأنجلوفونية" و"الفرانكفونية" و"الإسبانوفونية"، أما على مستوى الدولة الواحدة، فيعد موقف اليابان من لغتها اليابانية، نموذجاً للنضال ضد هيمنة القطب اللغوي الأوحده، ونقصد به الولايات المتحدة الأمريكية. فبرغم كل إنجازاتها في مجال صناعة العتاد والاتصالات والإلكترونيات، فقد أيقنت اليابان أن مصيرها في عصر المعلومات عموماً، والإنترنت بصفة خاصة، رهن بمصير اللغة اليابانية. وتوالت جهود اليابان لتأمين موقع حصين لها على الخريطة الجيو. لغوية، وكانت البداية في مشروع الجيل

تكون إلى "النديم البشري"، آلة تجادل وتناور وتغازل وتتجاذب مع أهواء متحدثها وتكتيكات حوارها. وكما هو واضح، فإن هذا "الحوار الإنساني آلي" يتطلب فهما عميقاً للعلاقة بين لغة الإنسان الطبيعية ولغة الآلة الاصطناعية؛ وهو الأمر الذي سيقتضي تمعناً دقيقاً في كيفية اكتساب الإنسان لغته الأم من جانب آخر. والأهم من ذلك هو دراسة الأبعاد النفسية والاجتماعية لهذا التواصل الذي يتناصفه الإنسان مع الآلة، لقد أثرت تكنولوجيا الطباعة على الشفاهة والكتابة، وأثر التلفزيون على لغة الصحافة والحوار، ولا بد سيكون لهذا التواصل "الإنساني الآلي" نتائج التي يصعب التكهّن بها.

يفسر ذلك سر اهتمام مهندسي اللغة حالياً، بفهم آليات المحادثة وتحليل بنيتها من أجل الوصول إلى ما أطلق عليه "هندسة الحوار".

أثبتت اللغة العربية جدارتها على مر العصور، وحقها في أن تصبح لغة عالمية، وشهد تاريخ الفتح الإسلامي على سرعة انتشارها واندماجها في بيئات لغوية متباينة. لقد نجحت العربية في عصور الازدهار أن تكون أداة فعالة لنقل المعرفة.

تتسم اللغة العربية من منظور فقه اللغة، بالعديد من الخصائص الجوهرية التي تؤكد عالميتها، ومن أهمها، التزامها بالقاعدة الذهبية فيما يخص التوسط والتوازن اللغوي. فاللغة العربية تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى، وتتسم منظومة اللغة العربية بتوازن دقيق، وتآخ محسوب بين فروع اللغة المختلفة.

ومن منظور معالجة اللغات الإنسانية آلياً بواسطة الكمبيوتر، أثبتت العربية جدارتها كلغة عالمية، فبفضل توسطها اللغوي، الذي أشرنا إليه أعلاه، يسهل تطويع النماذج البرمجية المصممة للغة العربية لتلبية مطالب اللغات الأخرى وعلى رأسها الإنجليزية. بقول آخر، فإن العربية، لغوياً وحاسوبياً، يمكن النظر إليها، بلغة الرياضيات الحديثة. على أنها فئة عليا تندرج في إطارها كثير من اللغات الأخرى.

تتعرض العربية في ظل العولمة وثورة المعلومات، لحركة تهميش نشطة، بفعل الضغوط الهائلة الناجمة عن طغيان اللغة الإنجليزية على الصعيد السياسي والاقتصادي والتكنولوجي والمعلوماتي. وتشارك العربية معظم لغات العالم، إلا أنها تواجه تحديات إضافية نتيجة للحملة الضارية التي تشنها العولمة ضد الإسلام، وبالتالي ضد العربية، نظراً إلى شدة الارتباط بينهما⁽¹⁾.

4 - العربية وتواصل عصر المعلومات

أغفلت معظم دراساتنا اللغوية جوانب استخدام اللغة وظيفياً، بمعنى استخدامها في مسار الحياة الواقعية، وفي عمليات التبادل والتفاوض والتراسل والتواصل الهاتفي... يتضح ذلك، في ضعف مهارات الاتصال لدى الغالبية منا: كتابة وقراءة وشفاهة واستماعاً. وليس هذا. حتماً. نتيجة قصور في العربية؛ فهي تمتلك العديد من الخصائص والأدوات التي تؤهلها لتكون

لغة حوار فعالة. إننا مازلنا أسرى اللغة المكتوبة غير ملمين بالعلاقات اللغوية والتداولية والمقامية التي تربط بين أدائنا الشفهي وأدائنا الكتابي، ويتجلى ذلك. بوضوح. في أساليب حوارنا وتفاوضنا.

5 - الهيمنة اللغوية للإنجليزية

للعولمة كذلك إسقاطات لغوية، نقف عليها من خلال استعمال اللغة كوسيلة للتواصل والتفاعل الاجتماعيين، والمتمثلة في وسائل الاتصال الحديثة (مثل الفضائيات والإنترنت) التي تسمح للفرد بالاتصال مع الآخرين مهما كان البعد الجغرافي. فيبدو أن البعد الجغرافي لم يشكل عائقاً أمام الاتصال بالجماعات غير المحلية. وللتفاعل الاجتماعي هنالك حاجة لغة مشتركة أو أكثر للاتصال. فزي واقع اليوم تعتبر اللغة الإنجليزية، لغة الدولة العظمى التي تتحكم بالعولمة، والتي يعتبرها العالم لغة عالمية، وهي لغة التواصل بين الأمم. فاللغة الإنجليزية هي إحدى سمات العولمة. ومن هنا تبتثق أهمية تعلم وتدرّس اللغة الإنجليزية في معظم أنحاء العالم. ووفقاً لكريستال (Crystal) فاللغة الإنجليزية تدرس بأكثر من مائة دولة في العالم كلغة أجنبية مثل، الصين، روسيا، ألمانيا، إسبانيا، مصر، البرازيل وغيرها.

يفرض الواقع اللغوي الجديد سلطان اللغة الإنجليزية على كل من يريد الانخراط بالعالم والتطورات العالمية، وله بدون أدنى شك، إسقاطات على اللغة العربية عموماً، وعلى العربية في إسرائيل على وجه الخصوص. لا شك أن هنالك صلة وثيقة بين الهيمنة اللغوية والقوة الثقافية، التكنولوجية والاقتصادية. فاللغة تصبح عالمية بقوة ناطقها، وبخاصة القوة العسكرية والقوة السياسية.

يقول معارضو العولمة إن اللغة الإنجليزية هي لغة قاتلة، وتنتشر كالباء الثقيل والحضاري في أنحاء العالم حاذقة الأصوات المميزة والهويات الحضارية. اللغة ليست مجرد وسيلة للاتصال بين الأفراد والجماعات، فأهميتها تفوق هذا بكثير. فاللغة تجسد الهوية الشخصية والثقافية. لذلك، دراسة الإنجليزية وممارستها تعني دراسة الحضارة والثقافة والفكر الغربي، الذي حتماً يؤثر على المجتمعات التي تتداولها.

لا شك أنه أصبح للإنجليزية حضور واستعمال أوسع في العالم العربي. في ذات الوقت نرى ازدهار الفضائيات والتي تستعمل الكثير منها فقط اللهجة المحلية، ونرى أيضاً قنوات فضائية عربية وروادها بالملايين، تستعمل العربية الفصحى.....⁽²⁾

6 - تطور اللغة العربية

نقرأ في كتاب (حياتي) لأحمد أمين، على لسان أستاذه المصري (علي بك فوزي)، عند زيارته له في سنة 1928م بأسطمبول، الكلمات التالية: "لا أمل في إصلاح مصر مادام هناك لغة للعلم ولغة للكلام، فإما أن ترقى لغة الكلام، وإما أن تنحط لغة العلم حتى تتحدأ، وحينئذ فقط يكون التفكير الصحيح واللغة التي تستمد روحها من الحياة الواقعية⁽³⁾ وأهمية هذا الكلام تكمن في أنه صادر عن شخصية علمية، يكفى أن يقال عنها إن أحمد

أقل عسراً للمعالجة، إذا ما صدقت النوايا وتوافرت الإرادة في خدمة العربية وإنماء الاعتزاز بها، والإيمان بقدراتها، ووضع لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، في مكانة الشرف والاحترام الذي تستحقه⁽⁵⁾.

وتواجه لغتنا العربية قضايا مهمة في هذا العصر الذي يتصف بتفجر المعرفة في جميع مجالاتها، ويتميز بهذا التسارع الضخم في تطور العلوم على الأرض، وفي الفضاء الخارجي، وإن هذه القضايا تتعلق بتيسير تعليم العربية ولا تَمَسُّ إطلاقاً إعرابها و صرفها ونظم تراكيبها، لأن هذه من الثوابت التي بدونها تفقد اللغة مقومتها الأصيلة. فالعربية ثابتة من حيث نطقها ونحوها و صرفها، ولكنها نامية من حيث أساليبها ومفرداتها ودلالات ألفاظها. وهذه هي الخصائص التي تنفرد بها العربية من بين جميع اللغات في العالم⁽⁶⁾.

يقول عبد الله الطيب: "لابد من العمل على إعادة اللغة العربية إلى بعض ما كان لها من مكانة في حفظ الثقافة والعزة القومية والمعارف الإسلامية، من إعادة النظر في أمر تعليمها تعليماً صحيحاً يبسر بغرض التفهيم، لا بغرض تجاوز العزائم إلى الرخص، والرخص إلى اللحن، واللحن إلى العُجْمَة وشبه العُجْمَة. ولا يكون التعريب الحق باستخدام ألفاظ أعجمية وجمل أعجمية ونصوص أعجمية حروفها وبعض نطقها وتركيبها كأنه عربي، إنما يكون التعريب الحق بأداء عربي الروح عربي الأسلوب مبين"⁽⁷⁾. وبذلك نرتقي باللغة العربية إلى المستوى الذي تتمكن فيه من التعامل الإيجابي مع تحديات العولمة في الحاضر وفي المستقبل.

8 - لغة العلم والتقانة

لا يعقل أن نخوض مجالات العلم الحديث ونواكب تقاناته، وتبقى لغتنا غريبة عن أجواء العلم وديناميكيته وتقنياته وإبداعه. لقد آن أن تصبح اللغة العلمية جزء من حياتنا اليومية في المدرسة والبيت والمصنع، وأن تغدو الثقافة العلمية جزء من ثقافة الصانع والطالب والمعلم والصحلي والأديب وصاحب الاختصاص الفني⁽⁸⁾.

ولا ريب أن مستقبل اللغة العربية يرتبط باستخدامها المتزايد والجاد في شبكات المعلومات العالمية. وهذا الأمر يتطلب جهوداً كثيرة على المستوى اللغوي، وعلى مستوى تقانات المعلومات، حتى نجد المؤسسات العربية تتعامل باللغة العربية. وهذا أحد تحديات المستقبل القريب، لتكون العربية مع اللغات العالمية الكبرى بوصفها وسيلة لنقل المعلومات بالتقانات المتقدمة⁽⁹⁾.

وهذا يتطلب أن تصبح اللغة العربية لغة منتجة للعلم، لتتبوأ المكانة الرفيعة بين لغات العالم. ويوم أن كانت العربية في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، لغة للعلم بمدلوله الدقيق الشامل، ارتقت إلى الذروة، وحازت قصب السبق بين اللغات العالمية، حتى صار طالب العلم من أي ملته أو عرق كان، يتخذ من العربية وسيلة لاكتساب العلوم والإحاطة بها والتبحر فيها.

إن التفاعل بين العلم والتقانة وبين العناصر الثقافية والتعليمية والحضارية والاجتماعية، هو تفاعل قائم وملموس،

أمين تتلمذ لها، وأنه قيل في فترة مبكرة كان فيها التفكير في تطوير اللغة العربية محدوداً للغاية. ومما يزيد في أهمية هذا الكلام أنه يربط بين مسألتين اثنتين كانتا في ذلك العصر في غاية الأهمية وهي إصلاح أحوال مصر، في العقد الثالث من القرن العشرين، وبعد مضي ست سنوات على استقلالها، والدعوة إلى التوحيد بين لغة العلم ولغة الكلام. وإن كانت لغة العلم تحتفظ دائماً بمسافة بينها وبين لغة الحياة العامة. ولكن المعنى المقصود هنا، هو تيسير اللغة العربية وتطويرها، بحيث تقترب من اللغة المتداولة في المجتمع، حتى تواكب اللغة تطور الحياة ومتغيرات العصر.

وهذا الربط بين إصلاح أحوال المجتمع وبين تطوير اللغة، في تلك المرحلة المبكرة من عشرينيات القرن الماضي، يثبت لنا أن الوعي بضرورة مواجهة التحديات التي تحاصر اللغة العربية، ليس وليد اليوم في عصر العولمة، وأن إصلاح اللغة هو جزء لا يتجزأ من إصلاح المجتمع، وأن اللغة تعبر عن حال المجتمع، وأن المجتمع هو الذي يطور اللغة ويجدها ويجعلها تحيا وتساير المتغيرات.

إن تطوير اللغة هو الارتقاء بها لتكون في مستوى تطور الفكر والحياة والمجتمع، بحيث تصير اللغة منتجة ولا تظل لغة مستهلكة، وحين تنتج اللغة تصبح دافعاً للتقدم في الميادين جميعاً، وفي هذه الحالة تتخطى الحواجز التي تمنعها من الاندماج في العولمة.

اللغة ليست ظاهرة اجتماعية فحسب، ولكنها مرآة تعكس درجة الوعي الحضاري لدى متحدثيها. وتعتبر كذلك أداة تعبيرية طيبة حية تبلغ ذروتها حين يعتمد الناطقون بها إلى التماس الجمال الفني في تعبيرهم بها، وفي التألق في انتقاء ألفاظها عبر نظامها الصوتي والتركيبي، مما يجعل من تعابيرهم، لوحات فنية من النسوج الكلامية تروق سامعها، وتبهر قارئها⁽⁴⁾.

ولكن تطوير اللغة، هو جزء لا يتجزأ من تطوير المجتمع الناطق بها من النواحي كافة، وليس من الناحية الثقافية فحسب. وإذا كان هذا التطوير قضية ترتبط بنمو القدرات الذاتية على التغيير الإيجابي في مستويات الحياة العامة، فإن اللغة لن تكون في المستوى الرقي من التألق والازدهار والقوة والقدرة على مسابرة ركب التقدم في جميع الميادين، ما لم تتوافر الإرادة الجماعية للإصلاح الذي يبدأ من التطوير والتحديث.

7 - مستقبل اللغة العربية في ظل تحديات العولمة

إن القضايا التي تواجهها اللغة العربية في العصر الحديث، هي قضايا طارئة تفرضها متطلبات العصر من ناحية، وقرون التراجع الحضاري التي مرت بها أمتنا في مسارها التاريخي من ناحية أخرى، وليست قضايا لغة تواجه استيعاب ما وصلت إليه المعارف الإنسانية في أول تجربة لها؛ فقد اجتازت العربية هذه التجربة في تاريخها الطويل عندما كانت اللغة الأولى للعلم والفكر في العالم أجمع، ولعدة قرون.

فكما للغات الأمم قضاياها، فإن للغة العربية قضاياها أيضاً، وليست متفردة بذلك من دون اللغات، بل ربما كانت قضاياها

الأخلاف. وإذا كانت الأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها وأصبحت في حالة سبات، تستطيع أن تستعيد وعيها بالعودة إلى تاريخها، فإن الأمة إذا فقدت لغتها تكون عندئذ قد فقدت الحياة⁽¹⁴⁾. ولا مستقبل لأمة فرطت في لغتها، وليس في المستطاع مواجهة تحديات العولمة بلغة لا تتوافر لها شروط المواجهة.

الهوامش

- 1- بحث ألقى في الدورة 74 لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، يوم 28 أبريل 2008 م، ص 61 - 75.
- 2- جلال أمين، مجلة، المستقبل العربي، العدد 228، صفحة 23، فبراير 1998 م، بيروت.
- 3- أحمد أمين، حياتي، ص 81، دار الكتاب العربي، بيروت، 1972 م.
- 4- عبد الملك مرتاض، التعددية اللغوية فح جديد لتمزيق الهوية الوطنية، مجلة العربي، العدد 500، ص 27، أكتوبر 2000 م، الكويت.
- 5- عبد الكريم خليفة، العربية لغة البحث العلمي والتعليم الجامعي على مدرج القرن الواحد والعشرين، ضمن كتاب (قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب)، ص 363، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1993 م.
- 6- المصدر السابق، ص 264.
- 7- عبد الله الطيب، مشكلة الأداء في اللغة العربية، (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق)، المجلد 73 الجزء 3 ص 537، يوليو 1998.
- 8- أحمد شفيق الخطيب، منهجية بناء المصطلحات، مجلة (اللسان العربي)، العدد 52، الجزء 3، ص 537، الرباط، يوليو 1998 م.
- 11- محمود فهمي حجازي، اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين، (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق)، المجلد 73، الجزء 3، يوليو 1998 م.
- 9- حمزة الكتاني، الحرف العربي أداة تبليغ التكنولوجيا، ضمن كتاب (الحرف العربي والتكنولوجيا)، ص 94، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1988 م.
- 10- المصدر نفسه، ص 98.
- 11- خالد الأشهب، إنشاء قاعدة معارف مفهومية: مجال النباتات الطبية، ضمن كتاب (المعالجة الآلية للغة العربية)، ص 7، مطبوعات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، (جامعة محمد الخامس)، الرباط، 2006 م.
- 12- فيرنر هايزنبرج (عالم الفيزياء)، الفيزياء والفلسفة، ترجمة أحمد مستجير، المكتبة الأكاديمية، ص 119، القاهرة، 1993 م.
- 13- شوقي جلال، أزمة ترجمة المصطلح: كيف يكتسب بعده الاجتماعي، مجلة العربي، عدد 475، ص 120، الكويت، يوليو 1998 م.
- 14- عبد العزيز الدوري، مجلة (المستقبل العربي) العدد 244، ص 78، بيروت، يونيو 1999 م.

كما أن ارتباط سياسة العلم والتقانة بالسياسة الثقافية هو بدوره ارتباط وثيق ولموس. وهذا ما ينفي الدور الحيادي للعلم والتقانة، لأن المعرفة العلمية والتقانية للبنية الطبيعية والإنسان والمجتمع، تساعد على بلوغ الأهداف الوطنية المحددة داخل خطط التنمية الوطنية⁽¹⁰⁾. ولذلك تتفاعل اللغة العربية والتقانة والتنمية والعناصر الثقافية للأمة.

ونخلص من ذلك إلى التأكيد على حتمية استعمال اللغة العربية كأداة لتبليغ التقانة لتأمين مستقبل لغتنا، ولتأهيلها لتتبوأ المكانة اللائقة بها بين اللغات الحية. وينبغي أن لا نغفل حقيقة أخرى ستساعد ولاشك اللغة العربية على احتلال هذه المكانة في المستقبل، وهذه الحقيقة تتجلى في كون اللغة العربية في حاجة إلى مسابرة العصر، حتى تعبر عن فكر عصري، وتساهم في خلق هذا الفكر العصري. وعلى هذا الأساس، فنحن مدعوون إلى تدليل كل الصعوبات التي تقف في طريق اللغة العربية، سواء أكانت صعوبات جوهرية يُتغلب عليها بإعادة النظر في قواعدها، أم صعوبات أساساً متعلقة بتطوير الكتابة والشكل والطباعة⁽¹¹⁾.

يرتكز العلم على اللغة كوسيلة اتصال، وإننا نوسع اللغة إذ نوسع المعرفة العلمية⁽¹²⁾ ولغة العلم هي لغة تواصل، كما أنها أداة تصوّر العالم أيضاً، وتعطي الصورة العلمية للعالم. ومن ثم فإن اتساع اللغة رهن باتساع النشاط المعرفي العلمي في المجتمع بعامة، هذا وإلا ظلت لغة العلم، كما يقول الباحث شوقي جلال، نوعاً من الميتافيزيقا بالنسبة للمجتمع⁽¹³⁾.

ومما لا شك فيه أن ازدهار اللغة العربية في هذا العصر، وفي كل العصور، مرهون بازدهار العلوم والتقانة، حتى تصبح العربية لغة البحث العلمي في هذه الحقول جميعاً. فاللغة تنمو وتتطور وتزدهر بنمو الأمة التي تنتمي إليها والناطقة بها وتتطورها وبازدهارها.

خاتمة

إن تأهيل اللغة العربية لمواكبة تحديات العولمة، يجب أن يقوم على:

- التعامل مع اللغة على أساس أنها كائن حي قابل للتطور وفق ما يقرره أبناء اللغة، أي أن تطور اللغة يأتي من إرادة الناطقين بها، ويصدر عنهم، فهم أصحاب المصلحة في هذا التطوير.

- إحكام العلاقة بين عملية تطوير اللغة وإصلاحها وتحسينها وتجديدها، وبين المتغيرات التي تعيشها المجتمعات العربية، بحيث تكون عملية التطوير استجابةً لتطور المجتمع، ونابعة من واقعه المعيش.

- الانفتاح على المستجدات في العالم، خاصة في مجالات العلوم والتقانة والمعلومات وعلم اللغة الحديث بكل تفرعاته والحقول البحثية المرتبطة به، والسعي إلى الاقتباس والنقل والاستفادة الواسعة من نتائج هذه العلوم جميعاً في اغناء اللغة العربية وربطها بحركة الفكر الإنساني.

فاللغة هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد بغيره، لأنها واسطة التفاهم بين الناس، وآلة التفكير عند الفرد، وواسطة نقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء، ومن الأسلاف إلى